عيد الأضحى في المجتمع الإفريقي..

رصد لبعض مضامينه الحضاريَّة

د. آدم بمبا

أكاديمية الدراسات الإسلامية، جامعة مالايا، ماليزيا

للأعياد في كلِّ دينٍ أهميَّة قصوى؛ فهي تحقّق الكثير من الوظائف الاجتماعيَّة، كتعزيز تماسك المجتمع أو المجموعة المعيَّنة، وشعور كلِّ فردٍ داخل المجموعة بالانتماء والتَّمايُز، والتَّرويح عن النَّفس، وغير ذلك من الدلالات الرُّوحيَّة والأخلاقيَّة والإنسانيَّة التي يؤمن بها الدِّين المعيَّن[١]، وتتراوَحُ الأديانُ بين مُكثرٍ من الأعياد وبين مقلٍّ، والإسلام من الصِّنف الأخير.

وبتعبير الباحث فيرناندیز؛ فإنَّ هذه الأعياد شكلٌ من (الخطاب الرَّمزي figurative language) لدى كلِّ مجموعةٍ للتَّعبير عن هويَّتها، وإبراز صورتها للآخر، خصوصاً في أزمنة التَّوتُّر الاجتماعيِّ[٢].

أمَّا الأعياد في الإسلام تحديداً؛ فإنَّها تضطلع بمقاصد ساميةٍ؛ إذ ترتبط تلك بالتَّعبُّد وبالذِّكرى والاستلهام من المواقف التي رافقت مشروعيَّة تلك الأعياد؛ لذلك توصف الأعياد في الإسلام بوصف: (شعائر)، أي أنَّها مواسم لاستشعار ما وراء الطُّقوس الاحتفاليَّة ومظاهر البهجة.

وعن عيد الأضحى خاصَّة؛ أوضح الباحث ميشيلْ بالينْ أنَّ: «الاحتفال بهذا اليوم إحياءً لذكرى فداء ابن إبراهيم من الذَّبح، عليه وعلى أبيه السلام، يمثِّلُ يوماً فريداً في التَّقويم الإسلاميِّ. وليس الاحتفاءُ بنجاة الابن سببَ الاحتفال فقط، وإنَّما رغبة إبراهيم – عليه السلام – في التَّضحية بابنه امتثالاً لأمر الله، إنَّه الطَّاعة والانقياد لأمر الله من الأب وابنه، وذلك حجَرُ الزَّاوية في الإسلام، إنَّ هذا هو معنى كلمة: إسلام»[٣].

تأثير عيد الأضحى في جوانب الثَّقافة الإفريقية يُعدُّ صورةً جزئيَّة من التَّأثير الإسلاميِّ الكليِّ في مظاهر الحضارة الإفريقية

وفي أثر العيد في بناء انتماء المسلم إلى الأمَّة الإسلاميَّة الكبرى؛ يؤكِّد الباحث فيرناندیز – السَّابق ذكره – أنَّ مناسبة الحجِّ وعيد الأضحى تمثِّل هذا المعنى بامتياز؛ بوصفها تعبيراً عن (الصُّورة العالميَّة global image) للمسلمين حول العالَم[٤].

أمَّا في إفريقيا خصوصاً؛ فقد حقَّقت مناسبة العيدَين هذا المقصد التَّضامني بإحداث قَوْلَبةٍ جديدة لأسُس الرَّوابط الاجتماعيَّة بين مسلمي إفريقيا، وخرجت بتلك الرَّوابط عن ربقة الرُّؤية الضَّيِّقة المنحصرة في علاقات الدَّم والقَبيلة، إلى رابطة العقيدة الموسَّعة، وفي هذا السِّياق يوضِّح الكاتب بوغاجي أثرَ العيدَيْن وغيرهما من الشَّعائر الإسلاميَّة ببلاد الهوسا، فيقول: «إنَّ الشَّعائرَ الإسلاميَّة، كإيتاء الزَّكاة،

(١) G. C. Bruinhorst. (2007). Raise your Voices and Kill your animals, Amsterdam University Press, 44.

(٢) In G. C. Fernandez. (1985)./////205-206. Bruinhorst, Raise your Voices, Op. Cit.

(٣) Palin, Michael. (2010). Sahara, UK: Hachette. (Day forty-three).

(٤) ////, Fernandez. Op. cit.

وصـــوم رمضان، وصلاة الجمعـــة، والعيدَين... وعقيقة الأطفال، ومراسم الزَّواج، والجنائز، قد شكَّلت رباطاً أساساً لتلك التَّجمُّعات. أمَّا طقوس تقديس قبور الأسلاف (Kusheyi)، التي كانت تمثِّلُ الرَّوابـــط الجوهريَّة في التَّجمُّعات القبَليَّة في تلك المنطقة، فإنَّها لم تعُدْ بذات أهميَّةٍ في مجتمع متعدِّد الأصول»[١]، ويؤكِّد الباحث جبريل كولي ذلك أيضاً؛ بأنَّ احتفاليَّات العيد بين يوربا، بســـيراليون في العهد الكولونياليِّ، كان له الأثر الكبير فـــي تضامُن هذا المجتمـــع ذي الأقليَّة آنـــذاك بمدينة فريتاوْن، وحفاظـــه على هويَّته واستقلاله[٢].

بناءً على هذه الأهميَّة لشـــعيرة العيدَيْن في المجتمع المســـلم؛ فإنَّ الدِّراسة الحاليَّة تسعى لاســـتعراض صُوَرٍ من تأثير هذه الشَّـــعيرة في ثقافات إفريقيـــا قديماً وحديثاً؛ وكما هو معلومٌ فـــإنَّ الحديث عن قارَّة مترامية الأطراف، وعبر حُقَبٍ تاريخيَّة ممتدَّة، لا يسلم من التَّعميم؛ لذلك فإنَّ الدِّراسة الحاليَّة مجرَّد استعراضٍ عامٍّ ليس إلاَّ.

هذا، وإنَّ الدِّراســـات في هذا المجال جدُّ نادرة، بل إنَّ المنهج الأكثـــر دقَّةً في تناوُل مثل هذا الموضوع هو المنهج الميدانيُّ المســـحي؛ لرصـــد مفردات ثقافة الأعياد الإســـلاميَّة في واقع مجتمعات إفريقيا المسلمة، وهو منهجٌ دون مقدور الباحث في هذا المقام.

بهـــذا الصَّدد، تجـــدر الإشـــارة أيضاً إلى دراستَيْن مهمَّتَين، وربَّما يتيمَتَين في هذا المجال: إحداهما للباحث الأنثروبولوجي برونْسْـــهورتْ – بالإنجليزيَّـــة –، وترجمـــة عنوانهـــا: (ارفـــعْ صوتك (بالتَّكبير) واذبـــحْ أضحيَّتك!) مطبوعة (٥٨٨ ص)[٣]، والأخـــرى بالفرنســـيَّة لمجموعة مـــن الباحثين الاجتماعيِّيـــن، عنوانها مترجماً: (تاباسْكي في السِّنغال: عيد إسلاميٌّ في مجتمع حَضَري)، منشـــورة فـــي كتاب مطبـــوع (٤٦٦ ص)[٤]، وتلتقي الدِّراســـتان في كونهما دراستين اجتماعيَّتين ميدانيَّتين فـــي المجتمع الإفريقي الحضَـــري المعاصر، وفي اســـتهدافهما رصد التَّأثيرات الثَّقافيَّـــة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة لعيد الأضحى بالمجتمع موضوع الدِّراسة، لكنَّ الدِّراسَتَين تختلفان – مكاناً – اختلاف المشرق والمغرب، لكَوْن الأولى عن أقصى شرق إفريقيا في مجتمع تانْغـــا بتنزانيا، والأخرى في أقصى الغرب الإفريقي عن المجموعات الإثنيَّة القاطنة بالسِّنغال.

وقبل هاتَين الدِّراسَـــتَين يوجد نصٌّ للرَّحالة المغربـــي ابن بطوطة عن زيارتـــه لمملكة مالي (١٣٥٢ – ١٣٥٣)؛ وسجَّل في فقراتٍ من الفصل الخاصِّ بمالي بعض مشـــاهداته لمظاهر عيد الفطر والأضحى آنذاك، إنَّ هذا النَّص القصير الذي جاء في (٤٢٦ كلمة) فحسب على قدرٍ من الأهميَّة كبير؛ لاشتماله على مضامين اجتماعيَّة وثقافيَّة قد انْمحى بعضها مع الزَّمن.

(١) Bugaje, Usman Muhammad. A Comparative Study of the Movements of UthmandanFodio in Early Nineteenth Century Hausaland and Muhammad Ahmad al-Mahdi in Late Nineteenth Century Sudan, MA Thesis, (Khartoum: Institute of African and Asian Studies), December, 1981), p.42.

(٢) Gibril, R. Cole. (2013).The Krio of West Africa: Islam, Culture, Culture, Creolization, and Colonialism in the Nineteenth Century,Ohio University Press, 177.

(٣) G. C. Bruinhorst. Raise your Voices..., Op. Cit.

(٤) Anne-Marie Brisebarre, Liliane Kuczynski. (2009). La Tabaski au Sénégal: une fête musulmaneen milieu urbain, KARTHALA Editions.

حقَّقت مناسبة العيدَين قَوْلَبةٍ جديدة لأسُس الرَّوابط الاجتماعيَّة بين مسلمي إفريقيا، وخرجت بتلك الرَّوابط عن ربقة علاقات الدَّم والقَبيلة، إلى رابطة العقيدة الموسَّعة

ومن المعلومات التي كشف عنها ابن بطوطة في مشاهداته تلك عن عيد الأضحى بمالي:

(أ) وجود المصلَّى في أرضٍ فضاء على مقربةٍ من القصر.

(ب) حرص المسلمين في لباس الجديد من الثِّياب البيض.

(ج) لبس السُّلطان وسائر النَّاس الطيلسان في هذا اليوم فحسب.

(د) تخصيص الملك بموعظةٍ بعد صلاة العيد.

(هـ) جلوس السُّلطان في ميدان على عريشٍ مضروبٍ يُطلَقُ عليه: «بَنْبي»؛ لسماع إنشاد «دوغا»، وعزف النِّساء، ورقص الغلمان.

(و) إنشاد شعراء «جالي» أشعاراً وعظيَّة؛ لتذكير السُّلطان بواجباته، وحثِّه على حسن الأفعال.

عيد الأضحى: أسامٍ محليَّة ومضامين ثقافيَّة:

يُطلق على عيد النَّحر في لغة هوسا: (بابانْ صلاة babban' salla)، أي: الصَّلاة الكبرى، وعلى عيد الفطر: (كرامارْ صلاة karamar salla)، ومثل ذلك تماماً عند مادينغ؛ حيث يُشارُ إلى عيد الفطر باسم: (seli-deni)، وإلى الأضحى باسم: (seli-ba)، وينبغي التَّنبُّه هنا إلى تعبيرهم عن العيد بكلمة: (صلاة).

أما يوربا؛ فيطلقون على عيد الأضحى: (Ileya)، وهي اقتراضٌ محرَّفٌ من العربيَّة (أضحى)، تطوَّر فيه صوتُ الضَّاد إلى اللاَّم على ألسنة يوربا، ومثل ذلك بلغة مادينغ: (lyan-seli)، أي: صلاة الأضحية[1]، غير أنَّ الباحث (Ryan: ١٩٧٨ : ٢٨٠) يذهب إلى أنَّ (ileya) عند يوربا غير مقترضة من العربيَّة، وإنَّما هي اختصارٌ لقولهم: (Ile-ya)، أي: لنَعد إلى البيت! إشارةً إلى عودة كلِّ فردٍ إلى أسرته ومسقط رأسه من أجل العيد[2].

وفي لغة ولوفْ بالسِّنغال وغامْبيا يُطلق على الأضحى: (تاباسْكي Tabaski)، وعلى عيد الفطر: (كوريتيهْ Korité).

أمَّا في السواحيليَّة؛ فيُعرف عيد الأضحى باسم: (عيد الحج)، ويُطلق عليه بعضُهُم: (sikukuu)، وهو إطلاقٌ عامٌّ على جميع الأعياد حتى غير الإسلاميَّة. كما توجد عدَّة إطلاقات عليه، منها: (iddyamfungotatu) (عيد الشَّهر الثَّالث بعد رمضان)، و (sikuya kuchinja (iddya)) (عيد النَّحر)، و (sikuyavijungu) (يوم المائدة؛ إشارةً إلى الأكل الجماعيِّ، وتلك عادةٌ تبدأ منذ غرَّة الشَّهر حتى يوم العيد)، كما يطلقون عليه: (sikukuukubwa) (العيد الأكبر)، ويقابله: (sikukuundogo) لعيد الفطر[3].

بناءً على هذا الاستعراض لعدَّة نماذج من

(١) تحويل صوت الضاد العربية إلى (لام) ممالة مطرد في اللغات الإفريقية الكونغو النيجيريَّة، يقرؤون مثلاً: (ولا الضَّالين) بقولهم: (ولا لالين).

(٢) Margaret, Thompson Drewal. (1992). Yoruba Ritual: Performers, Play, Agency, Indiana University Press, 215.

(٣) G. C. Bruinhorst. Raise your Voices..., Op. Cit., 132.

الأسماء المطلقة على العيدَين في لغات الشُّعوب المسلمة تتبيَّنُ تشابهات موجودة بين تلك الأسماء، مثل: وصف أحدهما بالأصغر والآخر بالأكبر، ويبدو أنّ ذلك ظاهرةٌ متواردةٌ في معظم لغات الشُّعوب المسلمة، غير أنَّ الجزم بذلك بحاجةٍ إلى دراساتٍ استقرائيَّة استقصائيَّة، بجانب ذلك توجد بعض الأسماء المختصَّة لدى بعض الشُّعوب كما هو الحال في السَّواحيليَّة.

هنا تجدر الإشارة إلى ظاهرةٍ ثقافيَّة عن أسماء (عيد الأضحى) في المجتمعات الإفريقية، تتمثَّل في تسمية المولود الذي يصادف مولدُهُ إحدى هاتَين المناسبَتَين بها، وتلك ظاهرةٌ معروفةٌ في الثَّقافة الإفريقية قبل الإسلام في إشارة الاسم إلى موسم معيَّن أو عيدٍ دينيٍّ، من ذلك: الاسم (Ekpo) عند إثنيَّة Ibibio بجنوب نيجيريا؛ لمن وُلد في موسم (عيد أرواح الأسلاف UsoroEkpo)[1].

أمَّا في السِّياق الإسلاميِّ؛ فإنَّ كثيراً من المسلمين يحملون أسماء الأيَّام والأشهُر العربيَّة؛ وبخاصَّة ذات العلاقة بالمناسبات والشَّعائر الإسلاميَّة، على سبيل المثال يشيع في الوسط السواحيلي وعند هوسا أسماء مثل: رجبُ، وشعبان، ورمضان، وعاشور، وجمعة، وتضاف علامة التَّأنيث إلى بعض هذه الأسماء للبنات، مثل: mwa-jumaa,mwana-jumaa.

أمَّا في مجتمع مادينغ؛ فيُطلقون على المواليد أسماء الأشهُرِ العربيَّة والمناسبات الدِّينيَّة بترجماتها في لغتهم، مثل: Sunkalo لرمضان، و Seriba لعيد الأضحى – اسماً للذُّكور –، و Domba لربيع الأوَّل، و Makurubi لليلة القدر – اسماً للإناث –، وعند فولاني يُطلق Julde على المولود بمناسبة عيد الفطر، فكلَّما نودي أحدٌ بأيٍّ من الأسماء المذكورة، عُرِفت مناسبةُ مولده.

أبرز مظاهر الاستعداد للعيد في المجتمعات الإفريقية:

يتمثَّل الاستعداد لعيد الأضحى في المجتمعات الإفريقية في عدَّة مظاهر اجتماعيَّة، منها: تزيين المنازل – في القرى– بطلائها بمادة بيضاء، وقد ترسم بعض النِّساء نقوشاً هندسيَّة مميَّزة على جدران منازلهنَّ، ويصبغن أيديهنَّ وأقدامهنَّ بالحناء، ويهيِّئن للعيد ما عندهنَّ من الزِّينة.

أمَّا الشَّباب؛ فيقومون عادةً قبل يومَين من العيد بتنظيف المصلَّى ونزع الأعشاب منه؛ لأنَّ صلاة العيد تكون عادةً في أرضٍ خلاء داخل القرية أو خارجها.

ويسهر الخيَّاطون شهراً كاملاً تقريباً قبل العيد في خياطة الملابس الجديدة.

ومن المظاهر العامَّة المرتبطة بالأضاحي، قيام بعض الأفراد بتسمين غنم لفترة قد تبلغ عاماً كاملاً أو عدَّة أشهُر، فيعزِلونها عن بقيَّة القطيع، ويحرصون على عَلَفها وإطعامها؛ حيث يُعتَقَد أنَّ كلَّ فردٍ سيجوز على الصِّراط على أضحيته، كذلك يُبادر بعضُهم إلى شراء أضحيَّته قبل العيد بأكثر من شهر؛ تفادياً للغلاء المصاحب لفترة العيد، كما يقوم الرُّعاةُ الفولانيُّون بعزل قطيعٍ من الغنم يُطلق عليها: (غنم العيد)، فيحرصون على تسمينها وورودها المراعي الخصبة والعناية بها؛ حتى تكون رائجةً في سوق العيد.

وقد أوضح الباحث أدْرياسينْ أنَّ أهميَّة العيد تتَّضح في هذا المقام، فكون الفولاني

(١) Klasberry, UmmaUmana. (2012). CULTURE OF NAMES IN AFRICA: A Search for Cultural Identity, Xlibris Corporation; also: E. U. Okoko (1988).Ubium History: Customs and Culture, Paico Limited.

رعاةً رُحَّلاً تحكُمُهم معايير كثيرة في قرار الحلِّ والتِّرحال؛ فـإنَّ عيد الأضحى يمثِّل معياراً قويّاً بين تلك المعايير، فيؤثِّر في اختيارهم للمراعي، وتوجيه مسار رحلاتهم الرَّعويَّة، ورصد الأسواق الرَّائجة ومواسـم العيد، أي أنَّ جانباً مهمّاً من حياة شعب الفولاني مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بعيد الأضحى[١].

هـذا، وتُعدُّ فترة عيد الأضحى فترةً باهظة التَّكاليف؛ بفعل العادات الاجتماعيَّة الكثيرة التي تلبَّسـت بهذه الشَّـعيرة، مثل لزوم شراء الرَّجل الأضحيـة لوالدَيْه ولأعمامـه وأحمائه، وتوفير ملابس العيـد لذَويه وبعض أقاربـه؛ مَا يُلجئ بعضَهُـم إلى تحمُّل ديونٍ كثيرة، وفي السِّـنغال مثلاً، تصرف الحكومة أو الشَّركات في القطاع الخاصِّ أجوراً مقدَّمة للموظَّفين بهذه المناسبة تُحسـم مـن رواتبهم علـى فترات، وتسـمَّى: (Advances Tabaski)[٢].

أيضاً؛ من العادات قُبَيْل العيد سفر الأفراد إلى ذويهم إذا تيسَّر ذلك؛ لقضاء العيد معهم.

أمَّا عن هلال شـهر العيد؛ فلا بد أن يكون واضحـاً جليّاً لا يماري فـي رؤيته اثنان؛ لذلك ورد في أمثـال مادينغ قولهـم: (ereyira la yoselibakalo)، أي: فـلان يرائي مثل هلال عيد الأضحى.

الخروج للعيد:

يكـون خروج النـاس لمصلَّـى العيد وقت الضحى تبعاً للمذهـب المالكي في ذلك، وفي القـرى، حتى في بعض المُـدُن يأتي الإمامُ إمَّا راكباً دابَّة وإمَّـا راجلاً، وحوالَيه طلابه يقرؤون الآيات وينشدون المدائح النَّبويَّة، ويكون هُوَ آخر الحاضريـن عادَةً بعد شـيخ البلَد والأمير (في مجتمعات هوسا).

وبعد الصَّـلاة والخطبة يذبح الإمامُ أضحيته التي يؤتـى بها إلى المصلَّى؛ ليكـون ذلك إيذاناً للمسـلمين بالذَّبح، بعد ذلك ينتشـر النَّاس، وفي ولايات الهوسا بشـمال نيجيريا يسير الأمير مع الرَّكب من المصلَّى إلى قصره؛ حيث يجد بانتظاره جموع المهنِّئيـن من أهل القـرى الآتين لتهنئته بالعيد، وتقـام وليمةٌ كبيرة، وتـوزَّع الهدايا على

(١) Adriansen, H. K. (2008). Understanding Pastoral mobility: the Senegalese Fulani, GEOGRAPHICAL JOURNAL, Vol. 174, No.3, 222-207.

(٢) Anne-Marie Brisebarre, La Tabaski au Senegal, Op. Cit., 126.

الفقراء، وقد يأتي بعضُهُم بهدايا خاصَّة للأمير.

ومن الأنشـــطة الثَّقافيَّـــة المصاحبة لهذه المناسبة إنشاد المدَّاحين الشَّعبيِّين لأشعارٍ في حقِّ الأمراء، ووُجهاء النَّاس، وكذلك ســـرد قصَّة (بايزيدا)، وهي قصَّة ملحميَّة للبطل الأسطوريِّ الذي تزعم هوســـا أنَّه وفد من كنعان، وأنَّه هو جدُّ قبائل هوسا، ومؤسِّس ممالكها[١].

وفي مناطـــق يوربا جنوبـــي نيجيريا تخرج المجموعات في المدن في جولةٍ اســـتعراضيَّةٍ على الخيول المزيَّنة تُعرف باسم: (ita-Oba/ Ojude Oba)، يطلقـــون فيهـــا الرَّصـــاص، ويلعبون بالرِّماح، وهي فُرصةٌ للأفراد والعشائر لاستعراض ثرائها وقوَّتها (العسكريَّة)[٢].

ويتبـــارى المدَّاحـــون الشَّـــعبيُّون في هذه المناسبة في ســـرد «مآثر» كلِّ عشيرة. أمَّا في جنوب بوركينافاســـو مثلاً، فـــإنَّ المدَّاحين من الفولانـــي يقومون بالتَّطواف على المنازل خلال أيَّام العيد الثَّلاثة، وإنشاد مدائح في حقِّ كلِّ أهل بيتٍ، ويحصلون بالمقابل على بعض الهدايا من الأقمشة، والدَّواجن، والنُّقود.

هـــذا، وإنَّ عنايـــة الملـــوك والسَّـــلاطين بإفريقيـــا بالعيدَين، وكونهما مناســـبةً لتوطيد أواصر التَّعاون، وحســـن الجوار بين المسلمين وبيـــن الملوك غير المســـلمين عـــادةً، لظاهرةٌ معروفةٌ في التَّاريخ الإفريقي، فقد كان كثيرٌ من الملوك يشـــاركون المسلمين في هذه المناسبة، ومـــن النَّماذج في هذا المجـــال مملكة (مُوصِي Mossi) الوثنيَّـــة القديمـــة، وفيها بلـــغ الوئامُ بين الأقليَّة المســـلمة وبين الزُّعمـــاء (مُورونَابا Moronaba) شأواً كبيراً، وكان الزَّعيم الوثنيُّ يشـــهدُ صلاة عيد الفطر (Nolokre) و صلاة عيد الأضحى (Kisha)، ويضحِّي فيه، ويجزل عطاياه للمســـلمين[٣]، وقد أحدَث ذلك خلافاتٍ فقهيَّة بين العلماء المســـلمين ببلاد السُّـــودان الغربي في مفهوم الولاء والبراء.

التَّهاني وعبارات المجاملة:

لمناسبة التَّهنئة بالعيدَيْن صِيَغٌ محفوظةٌ في معظم لغـــات إفريقيا، وتفيد تلك الصيغ فـــي تقوية أواصر الأخوَّة والتَّضامُن والألفة بين الأفراد في المجتمع.

ومن أشـــهَر عبارات التَّهنئة بعيد الأضحى بلغـــة مادينـــغ: (sambe-sambe)، أو: (salimafo!)، ويُجـــاب اختصـــاراً: (Allah an kesambejon ye!)، أي: (جعلنـــا اللـــه عِبَادَ كلِّ ســـنة)، وفي لغة وُلوفْ: (demenati, baalmaaq) (عيداً ســـعيداً، بلَّغنـــا الله عاماً آخر)، وعنـــد يوروبـــا: (EkuOdunileya/ EkuYedu) (عيد مبارك!).

وممَّا يتكرَّر عند مادينغ قولهم:

Smabesambe!	كل عام وأنتم
Fatigiya la. Batigiya la. Musotigiya la. Cetigiya la. Dentigiya la. Keneya la. Nafologigiya la.	بالآباء، بالأمهات، بالزَّوجات، بالأزواج، بالبنين، بالفتى...
Allah ka san camanyiraan'na	رزقنا الله أعواماً كثيرة.
Yafaan'ma	سامحونا (أخطاءنا)

(١) Dierk, Lange. "The Bayajidda legend and hausa history", in: Edith Bruder& Tudor parfitt (eds). (2012). The African Zion: Studies in Black Judaism, Cambridge Scholars Publishing, 138-174.

(٢) Margaret, Thompson Drewal, Yoruba Ritual, Op. Cit., 143.

(٣) Levtzion,Nehemia.(1968). Muslims and chiefs in West Africa: a study of Islam in the Middle Volta Basin in the pre-colonial period, Clarendon P., 169.

قد يكتسب (عيد بَرزَ) منحىً سياسيّاً حادّاً في بعض الفترات تبعاً للطَّقس السّياسيّ، ومواقف المسلمين من الحكومات

ويزيد الدَّاعي في هـذه الصِّيغة ويخصِّصُ طبقاً لحـال المدعُوِّ له[١]، وقـد يطول الدُّعاء لدقائق معـدودة يتناوب فيها الأفـراد الدُّعاء بعضهم لبعضهم الآخر، ويتحـدَّدُ مدى الدُّعاء بمدى طلاقة الدَّاعي في الدُّعاء، وأحياناً علاقته بالمدعوِّ له. هذا، ولا بدَّ من زيارة جميع الأقارب والمعارف بهذه المناسبة للتَّهنئة.

غيـر أنَّ حياة المدُن قد لا تسـمح بالوفاء بهذه اللاَّزمة الاجتماعيَّة، ومع شـيوع وسـائل التَّواصُـل فـإنَّ الكثيريـن يكتفـون بالهواتف والرَّسـائل الإلكترونيَّة القصيرة (SMS)، وقد دخلت التَّهاني في الشَّبكة العالميَّة، وبدأ الشَّباب يتفنَّنون فيها، ومن إيجابيَّات ذلك توسيع مدارك بعض الشَّـباب عن العالَم الإسلاميِّ، وتضامُنهم مـع القضايا الإنسـانيَّة والسِّياسـيَّة التي تهمُّ المسـلمين، ففي تغريـدة إلكترونيَّة على توتير بمناسبة عيد الفطر؛ أرسل أحدهم باسم «سعيد كايّتا» من مالي تهنئةً يقول فيها:

«sambe – sambe/ happy Eid Mubarak/ Bonne fete de Eid del fitra a tout (sic) mesfreres et soeurs du monde. Paix au Mali, a Gaza, et dans le monde».

أي: «كلُّ عام وأنتم بخير/ عيد مبارك سعيد (بالإنجليزية)/ عيد فطر مبارك (بالفرنسـيَّة)، لجميـع إخوانـي وأخواتي في العالَـم.. ليحلَّ السَّلام في مالي وفي غزَّة وفي العالَم أجمع»[٢].

توزيع لحوم الأضاحي:

بعد عودة النَّاس من المصلَّى يشرع كلُّ بيت في ذبح أضحيته، والاعتقاد الشَّائع أنْ يتولَّى ربُّ البيت وصاحب الاضحية نفسه – إذا كان رجلاً – بذبحها، وليس غيره، اللَّهم إلاَّ إذا كانت زوجة الرَّجـل حاملاً، فإنَّ مجتمعات مادينغ تتشـاءم حينئـذٍ من إراقة الزَّوج للـدَّم، وفي تلك الحالة يتولَّى غيره الذَّبح، وفي المدن يكلِّف بعضُ النَّاس الجزَّارين المحترفين لسلخ الأضحية وتقطيعها.

ويطوف بعض الدَّباغين على المنازل لجمع الجلود ودبغها بأجور، وقد لا يرغب بعضُ النَّاس في ذلـك فيَهَبون الجلود لأولئـك الدَّباغين[٣]، وفي العادة تُتَّخذ تلك الجلود للصَّلاة، أو لتجليد المصاحف، أو لعمل الأحجبة التي يُعدُّها (علماء الأسرار) (sirrkaramogow)، وغير ذلك من الاستخدامات، ولتلك الاستخدامات تعبيرٌ قويٌّ لمكانـة الأضحية لدى المسـلمين، واعتبارها شهادةً قائمةً لهم يوم القيامة بأداء هذه الشَّعيرة.

بعد تقطيع اللَّحم إلى أجزاء صغيرة، ترسل شرائح منها إلى الأقارب والجيران والفقراء، وقد غدا هذا التَّوزيع مجرَّد «روتين» اجتماعيٍّ؛ حيث قد يتبرَّم بعضُهُم إذا أرسل بلحم إلى صاحبه ولم يحصل على «ردٍّ»، وكأنَّ الآخر لا يُبادلُهُ مجاملته بالمثل، ومن العادات القديمة السَّابقة للإسلام

(١) Steiner, Beatrice. (2011). Cybercafés de Bamako: les usages de l'Internet au prisme de la parentéet des classes d'âge, KARTHALA Editions,212.

(٢) Dated: 28 Jul 2014, 6:15am.

(٣) La Tabaski au Senegal, Op. Cit., 120

التي تدخَّلت في توزيع لحوم الأضاحي تخصيص أبناء الأخت بعنق الذَّبيحة!

وفي بعض مجتمعات هوسا، في توغو مثلاً، حيث يسكنون في أحياء معروفة، يُطلق عليها: (زونْغو)، ومعظمهم من التُّجار الموسرين، فإنَّ بعض أولئك من كبار التُّجار منهم ويُعرفون باسم: (مايْ غيدا maigida)، يقومون بذبح أبقار أو أغنام إلى جانب الأضحية الفريضة؛ وتوزيع لحومها على سكان الحيِّ[1].

وفي قرى مجموعات مالينْكي بمالي وكوت ديفوار وغينيا، يوجد قطيعٌ من البقر ملكٌ للقرية (forobamisi)، تؤخذ منها واحدة أو أكثر بحسب حجم القرية، فتُذبح وتوزَّعُ لحومها على الجميع. كما أنَّ من العادة – في القرى خاصَّة – الاجتماع وقت الظَّهيرة في دار شيخ البلد، وهو عادةً أكبر أهل القرية سنّاً، لغداء جماعيٍّ يحضرها جميع أهالي القرية ولو من غير المسلمين. كذلك، فإنَّ من العادة في عموم إفريقيا – تقريباً – إعطاء الجيران من غير المسلمين من لحوم الأضاحي، وهذا التَّقليد يُعزِّز روح السَّلام وحسن الجوار بين المسلمين وبين جيرانهم.

من العادات المرتبطة بلحوم الأضاحي في السِّنغال – خاصَّة – الاحتفاظ بأجزاء منها، قوائمها خاصَّة، لتُؤكَل ليلة عاشوراء، وكأنَّهم يربطون العام الفائت بالحاضر، ويقوم العلماء بشجب هذه العادة، وهي في اضمحلالٍ واضح.

رقصاتٌ وعروضٌ شعبيَّة:

تتخلَّل أيَّامَ العيد رقصاتٌ شعبيَّةٌ وفنونٌ أدائيَّة عدَّة بالمجتمعات الإفريقية على الرُّغم من الموقف المالكيِّ الصَّارم من الغناء واللَّهو، غير أنَّ العادات والتَّقاليد الموروثة لها قوَّة حاضرة.

ويقوم الشَّبابُ والنِّساء عادةً بتلك العروض الشَّعبيَّة المصاحبة للعيد، والظَّاهر أنَّ مظاهر البهجة واللَّهو تقلُّ في عيد الفطر عنها في الأضحى، ولعلَّ ذلك من تداعيات الحالة النَّفسيَّة الإيمانيَّة المفعمة المصاحبة لرمضان، أو لاعتبار عيد الفطر (عيداً أصغر)؛ كما يؤكِّده الإطلاق الدَّارج في معظم لغات المسلمين بإفريقيا.

وفي مشاهدات ابن بطوطة للعيدَين بمملكة مالي تسجيلٌ دقيقٌ للإنشاد بحضرة السُّلطان، وضرب آلة (بالانْغ balang=xylophone)، وكبيرُ المنشدين يُدعى (دوغا) متبوعاً بنحو ثلاثين من غلمانه.. «وكلُّ واحدٍ منهم متقلِّدٌ طَبله يضربه، ثم يأتي أصحابه من الصِّبيان يلعبون ويتقلَّبون في الهواء كما يفعل السِّندي، ولهم في ذلك رشاقةٌ وخفَّةٌ بديعة، ويلعبون بالسُّيوف أجمَلَ لعب»[2].

وفي الوقت الحاضر لا تزال صُوَرٌ من الرَّقصات والعروض الشَّعبيَّة تقام بمناسبة العيدَيْن، والأضحى خاصَّةً، مثل رقصة (taarab) بمجتمعات سواحيلي، وأغاني (واكا) بمجتمعات يوربا وهوسا، وغيرها من الفنون الشَّعبيَّة التي تُضفى عليها صبغةٌ دينيَّة، والسُّؤال: هل هناك أنواعٌ مخصَّصة من الفنون الغنائيَّة والرَّقصات الشَّعبيَّة لا تُقام إلا بهذه المناسبة؟ وهو سؤالٌ لا نملك عنه إجابةً في حال عدم اطِّلاعنا على

(١) Agier, Michel. (1981). Etrangers, logeurset patrons l'improvisationsociale chez les commercantssoudanais de Lome, CAHIERS D'ETUDES AFRICAINES, Vol.21 (81-83), 251-257.265.

(٢) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة: (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، مصر: المطبعة الأزهرية، ١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م، (٢ / ١٩٨).

شعيرة عيد الأضحى لا تزال تحمل الكثير من المخزون الحضاريّ للمجتمعات المسلمة بإفريقيا

دراساتٍ ميدانيَّة في هذا المجال.

من العـــادات القديمة بمجتمع ســـواحيلي بمنطقـــة تانْغَـــا، وبخاصَّـــة (تنزانيـــا)، خروج الصِّبيان مع معلِّميهم بعد صلاة العيد والتَّطواف في المدينة، يقرأون سُـــوَراً مـــن محفوظاتهم، وينشدون قصائد إسلاميَّة، وفي الوقت الحاضر تقوم الجماعات والمدارس الإســـلاميَّة بتنظيم مســـابقاتٍ في حفظ القرآن بين الأطفال مساء العيد[١].

ومن الأنشـــطة الثَّقافيَّة الدِّينيَّـــة أيضاً ما يُعرف باســـم: (عيد بَـــرَز iddbaraza)، وهو تجمُّعٌ على مســـتوى القرى والمدن والدَّولة في تنزانيا، وفي غيرها من مدُن الشَّـــرق والجنوب الإفريقي، يقوم فيها أحد المشـــايخ بكلمة حول موضـــوعٍ اجتماعيٍّ أو دينيٍّ، ويلقي بمواعظ إلى المســـتمعين، وقد يكتســـب (عيد بَرزَ) منحىً سياســـيّاً حادّاً في بعض الفترات تبعاً للطَّقس السِّياسيّ، ومواقف المســـلمين من الحكومات، وفـــي أهميَّـــة هـــذا التَّجمُّـــع يؤكِّـــد الباحث برونْسْـــهورثْ بقوله: «إنَّه أكثر أنشطة يوم العيد بروزاً (على المستوى الوطنيِّ)؛ لأنَّه يُذاعُ محليّاً في التِّلفزيون والرَّاديو»[٢]، ويحضره السِّياسيُّون ومسؤولو الحكومة، وله أبعادٌ سياسيَّة واجتماعيَّة بعيدةٌ واســـعة، تُســـهم في التَّأكيد على تماسُك المجتمع الإســـلاميِّ، وتضامنه مع المجتمع من أجل تحقيق وحدة وطنيَّة.

هذا، ويبدو أنَّ تقليد (عيد بَرز)، هذا المشار إليـــه، امتدادٌ أو شـــبيهٌ بمـــا أوردَهُ ابنُ بطوطة بمملكة مالي من جلوس السُّـــلطان على عريشٍ مضروبٍ بعد العصر، بحضرة جمهور الشَّـــعب، وقيام كبير الشُّعراء بإنشاد أشعارٍ وعظيَّة يذكِّره بـــأنَّ ملكه زائل، وأنَّ مـــن الخير له أن يفعل من الخير ما يُذْكَر به بعده مثلما فعل أسلافه[٣].

العيد في الأدب والفنّ:

لشـــعيرة العيدَيْن، وغيرهما من الشَّـــعائر الإســـلاميَّة، حضورٌ في الفـــنِّ الأدبي، غير أنَّ الباحث لا يكاد يعثر على ما يشفي في هذا المجال من النَّماذج الشِّـــعريَّة والقصـــص والحكايات، والظَّاهر أنَّ الكثير من تلك النُّصوص الشَّـــعبيَّة قد ضاع بفعل التَّحوُّل الاجتماعي المتسارع في المجتمـــع الإفريقي بأجمعـــه، والانقطاع الحادِّ بين الجيل السَّـــابق والحاضر، أضفْ إلى ذلك تصاعُد الاستكاف من الفنون الأدائيَّة من لَدُن الأجيال الجديدة من العلماء المسلمين.

من القصص الشَّـــعبيَّة فـــي هذا المجال قصَّـــة الذِّئـــب الطَّمـــاع (La tabaski de bouki)، الـــذي أراد أن يُعيِّد الأضحى مثل ملك، يسرق أربعة خراف سمان من أربع قُرى، ويمنِّي نفســـه بالأكل حتى التُّخمة، وفي يوم العيـــد حين دقَّت طبول الدَّعـــوة للوليمة في القريـــة الأولى، وبدأ الذِّئـــب يجري نحوها،

(١) G. C. Bruinhorst. Raise your Voices..., Op. Cit., 355.

(٢) Ibid.,353.

(٣) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار، مصدر سابق، (٢ / ١٩٨).

دقَّت الطُّبول في القرية الثَّانية؛ فعاد أدراجه، وهكذا وقع الذِّئب في حَيْصَ بَيْصَ، وهو يلهث جارياً نحـــو كلِّ قريةٍ، فلا يصل إلى منتصف الطَّريـــق حتى يعود جاريـــاً نحو قرية أخرى، والنَّتيجة أنَّـــه أعياه الجـــريُ، وخارت قواه، ولـــم يصل أبداً إلى أيٍّ من القرى، فـ «الطَّمع والشَّره يوقعان صاحبهما في أخطاء»[١]، كما تقول القصَّة.

وإذا كانـــت النَّمـــاذج شـــحيحةً في هذا المقام في النُّصوص الشَّعبيَّة؛ فإنَّ النَّماذج من الرِّوايـــات الفنيَّة الحديثة التي تناولت موضوع عيد الأضحى، فـــي إثراء فضائهـــا الرِّوائيِّ، يمكن وصفها بالكثيرة، ومن أوائل تلك الرِّوايات الفنيَّة التي تناولت موضوع عيد الأضحى رواية (كريـــم) لعثمان صوصيهْ الســـنغالي[٢]، وفيها تصويرٌ لبعض المظاهـــر الاجتماعيَّة المعتادة للعيدَين، ومثلها روايـــة (القمامة) للروائي بابا باتيهْ ديـــوبْ[٣]، عالج فيها تمسُّـــك المجتمع بالمظاهر، وإرهاق الأفراد أنفســـهم من أجل إرضاء الرَّأي العام، ففي عيد الأضحى يحرص كلُّ ربٍّ أســـرة في توفير الملابـــس الجديدة لزوجاته وأطفاله، ويتباهَوْن في ذلك، وفوق كلِّ ذلك حرص كلِّ شـــخصٍ على شراء الأضحية مهما غلا الثَّمن؛ مخافة أن يقع ضحيَّة الألسن، أو أن يبدوَ أقلَّ قدراً من أقرانه.

بعيداً عن توظيف شـــعيرة الأضحى فنيّاً فـــي النَّقد الاجتماعيِّ؛ تأتـــي رواياتٌ جديدة لتصوير الدِّلالات الرُّوحية والإنسانيَّة السَّامية في شعيرة العيد، ولدينا في هذا الصِّنف رواية (صاحبة الجلجـــل الذَّهبـــي) للروائي تيمتي باصـــوري[٤]، وفيها تســـجيلٌ عميق لطقوس عيـــد الأضحى، وحمل العيد لمضامين روحيَّة واجتماعيَّة في إثـــراء رؤيا هذه الرِّواية؛ بكون الإســـلام عاملاً للسَّـــلام والتَّســـامُح والوئام الاجتماعيِّ.

روايـــاتٌ أخرى ســـعت إلى رســـم بعض أبعاد شـــخصيَّاتها من خلال ربطها بشـــعيرة عيد الأضحـــى، ومن الصُّور المتـــواردة في تلك الرِّوايات إبرازها لمبـــدأ (برِّ الوالدَين)، وذلك بالتـــزام الشَّـــخصيَّة المحوريَّة بتوفير كبـــش الأضحية لوالدَيه، من ذلك رواية (نداء حلبـــات المصارعة) للكاتبـــة أميناتا صوفالْ السنغاليَّة، وفيها يلتزم السَّيد (انْديوغو باري) كلَّ عام بشراء الأضحية لوالدته العجوز على الرُّغـــم ممَّا عُرِفَ عنه من انـــزلاقٍ في حياة البورجوازيَّة، والتَّنصُّل من العادات والأعراف التَّقليديَّة[٥].

مـــن الأمثلة الرِّوائيَّة أيضـــاً رواية (ضفادع الأحراش) السِّياســـيَّة، وفيها يُقبضُ على البطل الثَّائر في اضطرابٍ سياســـيٍّ، وبينما يُقاد إلى حتفـــه يهمس في أذن زوجتـــه بوصيَّته الأخيرة قائلاً: «اذهبي إلى البنك واسحبي الرَّصيد كلَّه، وأرسلي منه إلى والدي لمصاريف عيد الأضحى المقبل...»[٦].

كذلك، يبـــرز مبدأ البـــرِّ بالوالدَين مرتبطاً

(١) Roger M., Le Baron et Jacques Francois. (1828). Fables Senegalaises,Paris : Nepveu, 77-78.

(٢) OusmaneSoce. (1948). Karim: Roman Senegalais, Nouvelles Editions Latines.

(٣) Pape PatheDiop. (1984). La Poubelle, Présenceafricaine,91.

(٤) BasoriTimite, Grelots d'Or. (1983). CEDA.

(٥) Aminata Sow Fall. (1982). l'Appel des Arenes, Les Nouvelles Editions Africaines, 112.

(٦) ThernoMonenembo. (1978). Crapauds de brousse, Éditions du Seuil, 122.

بشعيرة عيد الأضحى في مشاركة الغلام «عثمان» في سباقٍ للجري يوم العيد، وفوزه بكبشٍ يأتي به إلى المنـــزل هديَّة لوالده الـمُقْعَد المعْدم، يقول السَّارد: «في ذلك اليوم؛ كانت صورة الإله القادر قد ارتســـمتْ بجلاءٍ أمام عَيْنَـــي بابا إبراهيما، أدرك أنَّ الله قد زوَّد ساقَيْ ابنه عثمان بما فقَدَهُ هو من ســـاقَيْه.. كلاَّ لم يَعُدْ أيضـــاً مُقعداً»[١]، وبهذا الموقف اســـتطاع الكاتب أن يُصوِّر بدقَّةٍ إسهام هذه المناســـبة في إبراز بُعدٍ عميقٍ في شـــخصيَّة الغلام، وفي الوقت نفسه بُعد الإيمان بالله وبألطافه في شـــخصيَّة والد الغلام، فعيد الأضحى، في كلٍّ من الرِّوايات الفنيَّة السَّـــابقة، قد اضطلع برسم البُعد الرُّؤيَوي للرِّواية، وبإثراء فضائها، ورسم أبعاد شخصيَّاتها.

خاتمة:

إنَّ تأثير عيـــد الأضحى في جوانب الثَّقافة الإفريقية يُعدُّ صورةً جزئيَّة من التَّأثير الإسلاميِّ الكليِّ في مظاهر الحضارة الإفريقية، أكَّد ذلك باحثون كُثُر عبر دراسات أنثروبولوجيَّة وتاريخيَّة، منهم الباحث برافْمان[٢]، الذي استكشف الكثير من الأصول الإســـلاميَّة في فنِّ الأقنعة، ومنهم الباحثان مارك[٣] وتامـــاري[٤]، وغيرهم، بل إنَّ هـــذا التَّأثير، كما يؤكِّده الباحـــث ماهر صولْ، قد تجاوز الأوساط الإسلاميَّة بإفريقيا إلى غير المســـلمين، ومن مظاهر ذلك ربط المجموعات الإثنيَّة غير المسلمة الكثير من رموزها الثَّقافيَّة بالمصدر المكِّيّ، واقتراضها الكثير من العناصر الإسلاميَّة في طقوسها التَّقليديَّة[٥].

هذا، وإنَّ شعيرة عيد الأضحى لا تزال تحمل الكثير من المخـــزون الحضـــاريِّ للمجتمعات المســـلمة بإفريقيا وفي غيرها من المجتمعات، من ذلك مثلاً إســـهام هذه الشَّـــعيرة في نشـــر ثقافة السَّلام والتَّسامُح، وفي تعزيز روح الإخاء والتَّضامن في المجتمع بأسْرِه.. مسلمين وغير مســـلمين، ولا شـــكَّ أنَّ دعم هذه الخاصيَّة في شـــعيرة عيد الأضحى يحقِّق مكاسب اجتماعيَّة جمَّة لم تـــزل المجتمعات البشـــريَّة بعيدةً عن تحقيقها.

أخيراً: إنَّ الدِّراســـة الحاليَّة لو نجحت في «فتح شـــهيَّة» الباحثين للقيام بدراساتٍ مفصَّلة مركَّزة عن شـــعيرة عيد الأضحـــى، أو غيرها من الشَّـــعائر الإسلاميَّة، واستكشـــاف آثارها الحضاريَّة بإفريقيا.. لو حقَّقت قراءة الدِّراســـة الحاليَّة هذا المقصد؛ لكفى ذلك! ■

---

(١) Ide Oumarou. (1997). Gros Plan, NEA.

(٢) Bravmann, René A. 1974. Islam and Tribal Art in West Africa. Cambridge: Cambridge University Press.

(٣) Mark, Peter. 1992. The Wild Bull and the Sacred Forest: Form, Meaning and Change in Senegambian Initiation Masks. Cambridge: Cambridge University Press.

(٤) Tamari, Tal. 2001. Notes sur la représenta tioncosmogoniquedogon, bambara et malinké et leursparallèles avec la pensée antique et islamique. Journal des Africanistes 71(1): 93–111.

(٥) Soul, Mahir, Islam and West African Anthropology, AFRICA TODAY, 26.